

٥ - ابنه باجه

هو أبو بكر محمد بن يحيى الملقب بابن الصائغ أو ابن باجه ، ويعرفه علماء الغرب في القرون الوسطى باسم اقمباس . من أشهر علماء العرب في الأندلس ، وكان مشهوراً بالطب والرياضيات والفلك ، ويشبه الفارابي في تفوقه في الموسيقى لاسيما التوقيع على العود . وقد ولد بسرقة في أواخر القرن الحادى عشر للمسيح . ولما شب تحول الى اشبيلية عام ١١١٨ للمسيح حيث أقام وانقطع لتأليف كتب في المنطق وأحد تلك الكتب موجود بمكتبة الاسكوريال تحت عدد ٦٠٩ . وقد فرغ الحكيم من وضعه يوم ٤ شوال عام ٥١٢ .

أما سبب تحوله الى اشبيلية فغير معلوم بالدقة ، وقد يكون اضطر الى الهجرة الى اشبيلية بعد أن فتح الفونس الأول مدينة سرقة عام ٥١٢ للهجرة ، فهجرها ابن باجه فيمن هجرها من العرب وكانت اشغل بها أمداً ثم سافر الى غرناطة وأقام بها حيناً ثم رحل الى المغرب فكان موضع الاجلال والاكبار لدى أمراء المرابطين . وقد ورد في تاريخ الحكماء ، وفي حياة ابن الخطيب (للمكارى) ان ابن باجه كان وزير يحيى ابن أبي بكر حفيد يوسف بن تاشفين ، ولكن هذه الرواية مرتاب في صحتها لأن يحيى الذى كان أمير فاس لعهد جده يوسف فر من فاس عام ١١٠٧ بعد وفاة جده لأنه ثار على عمه على بن يوسف صاحب الامارة بعد يوسف .

وقد قضى ابن باجه ولم يبلغ مبلغ الكهول عام ٥٣٣ للهجرة (١١٣٨ م) . وروى بعض مؤرخى العرب انه مات مسموماً قضت عليه غيرة قرنائه في الطب . وقد أطنب ابن أبي أصيبعة في حياة الحكيم ابن باجه في كتابه عيون الأنباء ، وذكر أن أبا الحسن على الغرناطى كان تلميذ ابن الصائغ وصديقه . وقد جمع نصيباً من مؤلفاته وكتب لهذه المجموعه مقدمة ذكر فيها أن ابن الصائغ أول من انتفع بحكمة المشاركة من العرب (فلاسفة الشرق هكذا يسمى ابن سينا والفارابى والغزالى لتمييزهم عن فلاسفة الغرب)

من العرب كابن الطفيل وابن باجه وابن رشد) وهذه الرواية لا ريب فيها لان مؤلفات هؤلاء الحكماء انتشرت في الأندلس منذ ولاية الحكم الثاني ٩٦١ - ٩٧١ فيكون ابن باجه أول من أشاع العلوم الفلسفية في الأندلس بغير نزاع . وقد اعترف بفضل ابن الطفيل الذي لم يعرفه بالذات ، انما خلفه بعد بضع سنين . وذكر ابن الطفيل ما كان عليه ابن باجه من توقد الذكاء وسعة الفكر ، وانه فاق أهل عصره وأسف عليه لأن مشاغل الحياة الدنيا ووفاته قبل الأوان عاقته عن فتح كنوز علمه لأن أهم ما خلفه من الكتب غير تام ولم ينجز سوى أبحاث صغيرة مكتوبة على عجل . بيد أن ثناء أفاضل أهل عصره لم يصن ابن الصائغ من ذم البعض ممن أعماه الحسد والجهل فقد كتب الفتح بن خاقان في قلاند العقيان :

« ان الأديب أبا بكر بن الصائغ هو قذى في عين الدين وعذاب لاهل الهدى . وقد اشتهر بين أهل عصره بهوسه وجحوده واشتغاله بسفاسف الأمور ، ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم النجوم ، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه . وكان يقول بأن الدهر في تغير مستمر ، وأن لا شيء يدوم على حال ، وأن الانسان كبعض النبات أو الحيوان ، وأن الموت نهاية كل شيء . . . الخ »

وقد ذكر ابن الخطيب في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » سبب العداء الذي استحکم بين ابن الصائغ وابن خاقان فقال ان الفتح اقتخريوماً بمجلس بما ناله من رضى أمراء الأندلس فكذب ابن الصائغ واحتقره

أما مؤلفات ابن باجه فقد ذكرها ابن أبي أصيبعة . فمنها كتب في الطب والرياضيات والحكمة وشروح لبعض كتب ارسطو في الطبيعيات وحوادث الجو وكتب في البداية والنهاية ، وكتاب في الحيوان . أما الكتب التي لم ينجزها وذكرها ابن طفيل فكثيرة منها ما هو في المنطق ومحفوظة في مكتبة الاسكوريال وكتاب في النفس ورسائله في تدبير المتوحد ، ورسالة الاتصال ، ورسالة الوداع . وقد تكلم في هذه الرسالة على العوامل التي تؤثر في الانسان وتدفع العقل على التفكير وشرح غاية الوجود الانساني

وغاية العلم وهما التقرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الصادر عنه جل وعلا . ثم أضاف المؤلف جملاً مبهمه في خلود النفس وغرس بذور المذهب الذي توسع فيه ابن رشد وهو مبدأ وحدة النفوس ، وكان له من الشأن لدى علماء النصرانية ما كان حتى حاول تفنيده القديس توما والبرت الكبير

ويظهر أنه كتب رسالة الوداع قبيل رحلة طويلة ، وبحث بها الى أحد تلاميذه . وأصدقائه ليكون على بينة من آراء الحكيم فيما يتعلق بأهم المسائل اذا لم يلتقيا بعد . وأول ما يظهر لقارئ رسالة الوداع رغبة المؤلف في أحياء .عالم العلم والفلسفة لأنهما في رأيه جديران بارشاد الانسان الى الاحاطة بالطبيعة وهدايته بعون الله الى معرفة ذاته وبالانصال بينه وبين العقل الفعال . وقد لام الغزالي الذي أضل نفسه وأضل سواه بزعمه في « المنقذ » ان الخلوة تفتح للذهن عالم المعقولات وتظهر المتأمل أموراً إلهية ليس وراء رؤيتها لذة وانها هي الغاية التي يسعى اليها المتأملون .

أما الرسالة التي دعاها ابن باجة « تدبير المتوحد » فهي أهم وأنفع كتبه ، وقد ذكرها ابن رشد في آخر كتابه على العقل الهولاني بما يأتي « أراد أبو بكر بن الصائغ أن يخطط خطة لتدبير المتوحد في هذه الأمة ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض وسنحاول في غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة ، لأنه أول من سار في هذا المضمار ، ولم يسبقه فيه أحد »

بيد أن رسالة ابن الصائغ لا أثر لها ، وليس في مؤلفات ابن رشد انجاز لما وعد من الكلام عليها والفضل فيما تعلمه منها راجع الى أحد فلاسفة اليهود في القرن الرابع عشر وهو موسى الزبوني شارح رسالة حي بن يقظان

ويظهر أن غاية ابن باجه من رسالة تدبير المتوحد أن يثبت قدرة الإنسان المتوحد المنتفع بمحسّنات الحياة البعيد عن مفاسدها على الاتصال بالعقل الفعال بمجرد تمقّواه الفكرية ، ولكن ابن باجه لا يوصي بالخلوة أو الوحدة المطلقة إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة الى سبل الوصول الى الكمال وهو يشير الى امكان ذلك لرجل بمفرده

أو لعدة رجال في درجة واحدة من الفكر وهم ذوو مقصد واحد وقد يستطيع ذلك أهل بلد بأسره لو كانت حياتهم تابعة لشروط الكمال . ولم تخف على ابن باجه صعوبة هذا الأمر فأوصى المتوحد بالعيش في أغزر المدن علماً أى في أقرب المدن الى الكمال وأجمعها لأهل الفضل والحكمة وهو يسميها أفضل الدول ورسالة التدبير مقسمة الى ثمانية فصول

﴿ ملخص رسالة تدبير المتوحد ﴾

الفصل الأول

غاية الرسالة شرح تدبير المتوحد بين أهل المدينة ، فشرع المؤلف في الكلام على لفظ « تدبير » قال : أن هذا اللفظ يدل في أكبر معانيه على مجموعة من الأعمال ترمى الى مقصد معلوم ، فلا يمكن أن يستدل بها على عمل مفرد إنما على جملة أعمال تنجز على وتيرة واحدة بناء على خطة مرسومة للوصول الى غرض معلوم كالتدبير السياسى والتدبير الحربى ، ويقال في هذا المعنى أن الله يدبر الكون لأن تدبيره جلّ وعلا على زعم العامة يشبه تدبير الحكومات وإن كان هذا التدبير في رأى الحكماء ، ليس مشابهاً الا في اللفظ دون المعنى . لأن تنظيم جملة من الأعمال على خطة معلومة والتفكير فيها قبل إنجازها هو من خواص البشر

ينبغى أن يكون تدبير المتوحد على مثال تدبير الحكومة الكاملة ، لذا شرع المؤلف يتكلم في التدبير السياسى ، قال : ومن علامات الحكومة الكاملة أن لا يكون بها أطباء أو قضاة فان أهل المدينة الكاملة ليسوا في حاجة الى المداواة لأنهم لا يتناولون من الغذاء الا ما يوافقهم وبذا تختفى الأمراض الصادرة عن الغذاء . أما الأدوية الخارجة عن الإنسان أى التى تصيبه بدون تفريط أو افراط منه فانها تزول بذاتها . أما الاستغناء عن القضاة فلأن العلاقات بين أبناء البلد يكون أساسها المحبة فلا يقع الخلاف بين الأصدقاء . ثم أن الحكومة الكاملة كفيلة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى ما يمكن بلوغ الفرد إليه من مراتب الكمال لأن الكل يفكرون بأعدل وسائل التفكير وينظرون الى الأمور

أدق نظر ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين لأن الفرد يكون عالمًا بما يجوز وما لا يجوز كذلك تخلص الأعمال من الخطأ والهدر والخل فتصفو الطباع وتكرم الأخلاق بحيث لا تكون بالناس حاجة الى طب النفوس وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه مثل الارستوقراطية والاوليجاركية والديموقراطية والموناركية

فالمتوحدون في حكومة غير كاملة ينبغي لهم أن يعيشوا كأنهم أفراد في حكومة كاملة فهم كالنبات الذي ينمو بذاته وبالطبيعة بين ظهرائى أمثالهم الذين هم كالنبات الذى ينمو نمواً صناعياً .

يقول ابن باجه وغايتنا من هذا الكتاب أن نشرح تدبير تلك النباتات التى ينبغي لها أن تسترشد بقواعد الجمهورية الكاملة بحيث لا تحتاج الى أنواع الطب الثلاثة (طب النفس وطب الخلق وطب البدن) لأن الله وحده هو شافياها، والمتوحد قد يكون فرداً أو جماعة ما لم تتبع الأمة بأسرها خطتهم وطريقهم لأنهم يكونون متميزين عن البقية بالسعى الى الكمال وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم المتصوفون اسم الغرباء لأنهم بما فطروا عليه من الفضائل وما اكتسبوه من الحكمة غرباء فى أوطانهم يشذ عنهم الأهل وينأى عنهم الأصدقاء، ثم أنهم ينتقلون بفكرهم من الوسط الذى هم فيه الى الجمهورية الكاملة التى هى لهم بمثابة الوطن والمستقر .

ملحوظة — راجع ما كتبناه عن الغارابى فانه فى السيرة الفاضلة ذكر مثل هذا القول

فى كلامه على خلاصة المنورين من الخاصة (Les ames bien nées.)

الفصل الثانى

شرع ابن باجه فى الكلام على أعمال الإنسان ، ففصل أنواعها للتمييز بين الأعمال التى تنتهى به الى غرض ، وبين الأعمال الإنسانية المحضة فقال : أن بين الإنسان والحيوان رابطة كالتى بين الحيوان والنبات والتى بين النبات والمعادن الجامدة . أما الأعمال البشرية المحضة والخاصة بالإنسان دون سواه فهى الناشئة عن الإرادة المطلقة أى عن إرادة صادرة عن التفكير لا عن غريزة ثابتة فى البشر ثبوتها فى الحيوان ، فلو أن رجلاً كسر

حجراً لأنه جرح به فانه يعمل عملاً حيوانياً ، أما من يكسر حجراً لئلا يجرح به سواء فعله هذا يمد عملاً إنسانياً ، ومن يأكل خيار شنبر لينتقي بذنه بحيث لا يكون الطعم اللذيذ الذى يستوعبه إلا عارضاً إنما يأتى عملاً إنسانياً بغايته ، حيوانياً عرضاً .

وزبدة القول هى أن العمل الحيوانى تدفعنا إليه الغريزة الثابتة فى الروح الحيوانى . أما العمل الإنسانى فيدفعنا إليه رأى أو الاعتقاد بقطع النظر عما اذا كان الفكر مسبوقاً أو غير مسبوق فى الوقت ذاته بمؤثر غريزى . وأغلب أعمال البشر الداخلة فى نطاق الأنواع الأربعة التى سبق الكلام عليها مركبة من عناصر حيوانية وأخرى انسانية ويندر أن تكون أعمال الإنسان حيوانية على الإطلاق إنما يغلب أن تكون إنسانية وهذا ما ينبغى للمتوحد . ومن لا يعمل إلا متأثراً بالفكر والعدل بدون إكتراث للروح الحيوانى فعله جدير بأن يسمى عملاً إلهياً لا إنسانياً وهو موضع عنايتنا فى هذه الرسالة وينبغى لمن يرمى الى هذا المقصد أن يسمو بفضائله بحيث اذا عزمت النفس العاقلة على إنجاز شئ - إنقاد إليها الروح الحيوانى دون أن يخالفها ما دام الفكر يريد ذلك وبذلك يصل الروح الحيوانى ذاته الى فضائل الخلق لأن تلك الفضائل إنما هى « ابراز الوجود للروح الحيوانى » لهذا ينبغى للمتوحد أن يتميز بالفضائل . هذه هى القاعدة الأولى لتدبير المتوحد لأنه ان لم يتميز فى تلك الصفات وكانت النفس الحيوانية تضع له عقبات فى وقت العمل تكون هذه ناقصة وبدون غاية وان لم تكن كذلك يضجر المتوحد بسرعة ويمجد صعبوبة . وفى الواقع أنه من طبيعة النفس الحيوانية أن تطيع النفس العاقلة ما عدا حال الرجل الذى ليس فى حاله الطبيعية كما هى حال الرجل ذى الطباع المتقلبة غير الثابتة أو الرجل الذى ينقاد للغضب

وهذا الرجل الذى تفوز لديه النفس الحيوانية على النفس العاقلة بحيث ينقاد الى شهواته ، والذى يحارب فكره ويخالفه هذا وان كان انساناً فهو يتبع الطبيعة الحيوانية ولا يعرف طريق الهدى من الضلال ، أقول ان الحيوان أفضل منه لأن الحيوان يطيع طبيعته الذاتية وفى الواقع يمكننا أن ندعو حيواناً بالمعنى المطلق ذاك الذى يملك

الفكر الإنسانى الذى يمكنه من أن يحسن الفعل وهو مع ذلك لا يحسن لأنه حينئذ لا يكون إنساناً ، والحيوان أرق منه بل هو حيوان على الإطلاق لأنه مع وقوفه بذكائه على المعلومات وتمييز الخير من الشر تراه ينبع طبيعة الحيوان .

فى مثل هذه الأحوال يكون العقل البشرى وسيلة لزيادة الشر أى عند ما يزعم علمه بالخير تغلب الطبيعة الحيوانية على الذكاء ، ومثل الذكاء كمثل الغذاء الطيب الفاخر يعطى لبدن معتل ويقول بقراط : « ان هذا الغذاء يزيد الداء » . أن سقوط الجهاد يتم بالطبيعة والصعود يتم بمجهود ولا شك فى أن هذه الأعمال تتم للضرورة ولا يوجد للجهاد حرية القصد . ولا يمكننا أن نمتنع عنها لأن الحركة فى مثل هذا العمل لا تأتى منا . كذلك العمل الحيوانى فى النفس الغذائى والمعيد القوى والمزيد يتم بدون قصد أى انه يتم بالطبيعة ، وحيث أنه يصدر عنا فى قوتنا أن نقف ذاتنا وأن نمتنع عنه . أما العمل الإنسانى فهو يصدر على الدوام عن قوتنا وبقصد منها ولذا فى قوتنا أن نمتنع عند ما نريد . وينتج من هذا أن النهايات أو العلل النهائية لا تعين ولا تحدد إلا بالأعمال الإنسانية

الفصل الثالث

ثم دخل الفيلسوف فى الكلام على الأعراض العقلية وأنواعها ليوضح آخر غايات المتوحد . فبدأ ببيان أعمال الرجل الإنسانية وانها تصدر عن القوة العاقلة وان هذه القوة موجودة لقصد أو لغاية وهذه الغاية هى النوع الثانى من الأعراض العقلية أن كلمة « العقل » يستعملها العامة استعمال كلمة النفس ويستعملها الفلاسفة كترادف وبعض الأحيان يقصدون بذلك الحرارة الطبيعية التى هى أول عناصر النفس ، لأجل هذا يقول الأطباء أن الأرواح على ثلاثة أنواع الروح الطبيعية والروح العاقلة والروح المحركة ويقصدون بذلك النفس لا من حيث هى نفس على الإطلاق انما من حيث هى قوة محركة ، وفى هذا المعنى تكون كلمة عقل ونفس مترادفتان . وكلمة روح تطلق خاصة على الروح ذات الدرجة الثانية أى الروح العاقلة أو الحيوية ، وبعض الأحيان هم

يقصدون بكلمة روح المواد الجامدة المنفصلة التي تحرك مواداً أخرى والتي ليست أجساماً إنما هي أعراض للأجسام . ومع ذلك فإن الفلاسفة لا يطلقون على هذه المواد كلمة روح كما هي عادة لغوي العرب . إنما يقولون غالباً « روحانى » كلمة مركبة ومشتقة من روح كما تشتق كلمة جسمانى من جسم ، ونفسانى من نفس . وكلما بعدت مادة عن الجسمانية كلما وجب أن تطلق عليها كلمة روحانى . لذا كان العقل الفعال أحق المواد بهذه التسمية وكذلك المواد التي تحرك الأجرام والدوائر الفلكية .

ان الأعراض الروحانية أربعة أنواع مختلفة الأول الأجسام الفلكية أو النجوم الثانى العقل العام والعقل الصادر والثالث العقل الهولانى أو المادى أى الأعراض المعقولة أو الأفكار العقلية القائمة بالأشياء . والرابع الأفكار التي توجد في قوى النفس أو في الذوق العادى أى في الخيال وفي الذاكرة .

أما النوع الأول فلا علاقة له على الإطلاق بالمادة . والثانى لبس في ذاته هيولانياً إنما له علاقة بالمادة لأنه يكمل الأشكال الهولانية كالعقل الصادر الذى يعمل الأشكال كالعقل الفعال . أما النوع الثالث فهو في علاقة مباشرة مع المادة ويسمونه هيولانياً لأنه يشمل الأشياء المادية المعقولة أى التي ليست روحانية بروحها ، لها وجودها في المادة وخارجة عن الجسمانية . وهى بعض الأشكال التي تبقى في قوة النفس العاقلة عند ما تنتهى العلاقة الخاصة التي بين القوة العاقلة والشيء المفرد ، لأنه ما دامت هذه العلاقة تبقى القوة العاقلة متأثرة بأثر جسمانى تجعل العلاقة جسمانية فلما تنتهى الجسمانية وتنتهى العلاقة وتصبح القوة العقلية روحانية لا تحفظ إلاّ العلاقة العامة أى العلاقة التي تربطها بسائر الأفراد . والنوع الرابع متوسط بين المعقولات الهولانية وبين الأعراض المادية المحضة .

الفصل الرابع

توجد أعمال ليس لها غاية سوى الشكل البدنى كالشرب والأكل واللبس والسكن . وهذه الأعمال لا غاية لها إلاّ التمتع المادى وغايتها إتمام الشكل الجسمانى ولا ينبغي إهمالها .

ثم أعمال غايتها الأشكال الروحانية الخاصة وهي تختلف باختلاف طبيعة الأشياء التي تقصد اليها نبلاً وخسة (١) مثل ذلك غرور بعض الناس بلبس الملابس الجميلة في الظاهر وهم يهملون الملابس الباطنية ، ان اللذة التي تعود عليهم ليست شهوانية إنما هي راجعة الى حاسة باطنية فيها شئ روحاني (ب) الأعمال الموجهة نحو العرض الروحاني الكامن في الخيال كأن يتسلح الانسان في غير وقت الحرب (ح) الأعمال التي غايتها التسلية والسرور كاجتماع الأحابب والألعاب وعلاقات الرجل بالمرأة لغير التناسل والترفيه في السكن وإقتناء الأثاث والبلاغة والشعر (د) الأعمال التي غايتها التكلم في العقل والفكر كأن يدرس رجل علماً لذاته ليكمل عقله لا ليعود عليه بنفع مادي أو كأن يعمل عمل كرم أو شرف بدون انتظار نتيجة مقصودة أو منفعة كل هذه الأعمال ينبغي أن تتم لذاتها وأن لا تكون لها غاية أخرى سوى تكميل الشكل الروحاني للانسان . ومع ذلك يوجد أشخاص يقصدون بهذه الأعمال الشهرة والمجد و يظنون أن أعظم سعادة للرجل أن يبقى اسمه على مر الدهور ، والعرب يعلقون على الذكر أهمية كبرى ويقول شاعرهم : الذكر للانسان عمر ثان

الأعمال التي يقصد بها الأشكال الروحانية العامة وهي أكمل أعمال الرجل والأعراض المقصودة هنا هي متوسطة بين الأعمال السابقة التي هي متمتجة بالجسمانية والروحانية المطلقة وهي الغاية النهائية لمن يبحث عن السعادة أو غاية المتوحد الكبرى

الفصل الخامس

بعد أن قسم الأعمال الإنسانية تبعاً للأعراض المقصودة بها أخذ الحكيم يبين غايات هذه الأعمال لكل شكل خاصة فقال إن الأغراض على ثلاثة أقسام :

أغراض متعلقة إما بالأعراض الجسمانية واما بالأعراض الروحانية الخاصة واما بالأغراض الروحانية العامة . أما الأعمال الجسمانية المحضة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان فلا محل لها هنا .

أما الروحانية العامة فهي تحرك الإنسان الى الصفات الخلقية والعقلية وان بعض أخلاق الإنسان توجد أيضاً في الحيوان كالشجاعة في الأسد والمعجب في الطاووس والبيقظ في الكلب . ولكن هذه الصفات ليست خاصة ببعض الأفراد من النوع إنما هي صفات غريزية راکزة في كل الجنس ولا توجد فردية إلا في الإنسان فكل الكلاب يقظة ولكن اليقظين من الرجال قليل ، ولذا فهي تسمى في الرجال فضائل اذا استعملها الرجال بمقدار معتدل وعلى الدوام كلما اقتضتها الحال

أما الصفات العقلية فتكون في الأعراض الروحانية الإنسانية قسماً خاصاً ليس له بالصفات الأخرى علاقة . فان الأعمال العقلية والعلوم في حقيقتها كلها كمالات مطلقة تعطى للإنسان الوجود الحقيقي التام ، أما العرض الروحاني الفردي فيعطى وجوداً محدود الزمن مثل العرض الروحاني الذي ينتج عن الشهرة فانه ليس بينه وبين ذاك الذي يحصل عليه بواسطة الصفات العقلية مقارنة

أن من يقتصر على الأعراض الجسمانية يضع نفسه في صفوف الحيوان كذلك يكون إهمال الوجود الجسماني ضد الطبيعة وهذا لا يباح إلا في بعض الظروف المستثناة حيث يكون احتقار الحياة فرضاً على الإنسان مثل وجوب موت الإنسان في سبيل الدفاع عن الوطن أو الدين ولا يمكن لأي رجل مادي أن يصل الى السعادة إنما لا يصل الرجل الى السعادة إلا اذا كان روحانياً محضاً وإلهياً حقيقة أن الرجل الروحاني ينبغي له أن يعمل أعمالاً جسمانية للضرورة لذاتها ، أما الأعمال الروحانية فيعملها لذاتها ، كذلك ينبغي للفيلسوف أن يعمل أعمالاً روحانية كثيرة بدون أن يكون فعلها لذاتها . أما المعقولة فهو يعملها لذاتها . فلا يتناول من الأعمال الجسمانية إلا ما كان أداة في مدأجله ولن يقدم الشيء الجسماني مطلقاً على الروحاني ولا يأخذ من أرفع درجات الروحاني إلا ما كان ضرورياً للمعقول ثم يتعلق في النهاية بالمعقول المطلق لأنه بواسطة الجسماني يكون مخلوقاً انسانياً وبالروحاني يكون مخلوقاً أرفع وبالمعقول يصير مخلوقاً سامياً إلهياً . فالفيلسوف هو بطبيعة الحال انساناً سامياً إلهياً ، على شرط أن يختار في كل نوع من

الأعمال ما كان أرفعها وأن يختلط بأهل كل طبقة من الناس لأجل أسى ما فى كل واحد منهم من الصفات وأن يمتاز عنهم جميعاً بأرفع الأعمال وأكثرها مجداً . فاذا وصل الى الغرض النهائى أى عند ما يفقه العقول البسيطة فى كل معانيها ، والمواد المنفصلة ، يصير واحداً منها ويمكن أن يسمى موجوداً إلهياً . فتبعد عنه صفات الجسمية الغير الكاملة كذلك الصفات الروحانية السامية ويجدر أن يكون له صفة الإلهى بدون أن يكون به شئ جسمانى أو روحانى . كل هذه هى صفات المتوحد ابن الجمهورية الكاملة .

الفصل السادس

الأعراض الروحانية الفردية على أربعة أنواع : النوع الأول هو العالمى ومقره الحواس أو الاحساس ، والنوع الثانى فى الطبيعة أو الشهوة ، لأن من به ظمأ يجد فى ذاته عرضاً روحانياً يدفعه للبحث عن الماء ومن به جوع يجده لأجل البحث عن الغذاء ، وعلى العموم كل من يشتهى مدفوع للبحث عما يشتهى بعرض روحانى ، وهذا العرض الصادر عن الطبيعة لا ينصب على جسم خاص لأن من به ظمأ لا يتطلب نوعاً خاصاً من الماء إنما يطلب ماء ما من الجنس الذى يشتهيه . النوع الثالث هو العرض الروحانى الذى ينشأ عن الفكر أو العرض الذى يصدر عن التأمل أو الدليل والابضاح

والنوع الرابع يشمل الاعراض التى تولد بواسطة تأثير العقل الفعال بدون تمضيد الفكر أو الدليل ، وفى هذا النوع يدخل الوحي النبوى ، والأحلام الصادقة التى هى صادقة بالضرورة ، وليست صادقة بالمصادفة . والنوعان الأولان مشتركان بين الانسان والحيوان والأعراض الضرورية للحيوان اكماله الطبيعى تعطىها الطبيعة لكل الحيوانات ، ولكن توجد أعراض تعطىها الطبيعة تكرماً ولا توجد الا فى بعض الحيوانات . وهذه الحال قاصرة على الحيوانات التى ليس لها دم كالنحل والنمل . والنوعان الأخيران من الأعراض الروحانية خاصان بالانسان وهما وسط بين الاعراض الروحانية الفردية والأعراض المعقولة لأنهما ليسا أعراضاً فردية لأجل الأجسام ولا أعراضاً

روحانية فردية كالاعراض الحساسة وليسا خالصين عن المادة بالمرة حتى يصح وصفهما بالعموم كالأعراض المعقولة ومن الممكن للمراقب أن يعرف من حدة النظر درجة الروحانية والذكاء التي وصل اليها الانسان .

الفصل السابع

لا ينبغي للمتوحد أن يعمل لأجل الاعراض الروحانية لذاتها لأنها ليست نهايته وان كانت وسيلة للوصول الى الغاية القصوى وينبغي له أن لا يتخاطب الذين لا يملكون الا تلك الأعراض الروحانية لأنهم قد يتركون في نفسه آثاراً تعوقه عن الوصول الى السعادة الأبدية

ولنفترض الآن ان رجلاً فاضلاً بالمرة كالمهدي وآخر فاجراً كأبي دلالة كل واحد منهما يملك العرض الخاص بالآخر . وكل عرض روحاني محرك للجسم الذي يوجد العرض به . فعرض أبي دلالة يحمل المهدي على السرور والهدر تبعاً لإدراك الأول للذات ولعرض المهدي يحمل أبا دلالة على التواضع والحياء . لأن أبا دلالة يذل بإدراك الطبيعة السامية التي هي طبيعة المهدي وبعرضها الشريف . ومن الحق ان التواضع والحياء هما من الصفات التي هي أرق من الخفة والباطل فحينئذ بعرض الرجل الراقى أى بإدراك هذا العرض يمكن للرجل المنحط أن يشرف ويرتقى وكذلك بعرض الرجل المنحط يمكن سقوط الرجل الراقى . فينبغي علينا والأمر كذلك أن نتوحد وبهذه الوسيلة ينقى أخس الناس نفسه ويعلم عن مجد الرجل السامى والسامى يخلص من التأثير الذي يمكن أن يتلقاه من الخسيس ولا يفكر إلا في الوحدة وكذلك يجد كل واحد من كان قريباً منه إلى جانبه . وهكذا المتوحد سيقى تقياً من الاختلاط بالناس . لأن من واجبه أن لا يرتبط بالرجل المادى ولا بالرجل الذى ليس له غاية إلا الروحاني المطلق . وواجبه أن يرتبط بأهل العلم وحيث ان أهل العلم لا يوجدون في كل مكان فينبغي للمتوحد أن يعتمد على الناس على قدر الإمكان وأن لا يمتزج

بهم إلا لأجل الضروريات ، ينبغي له أن يعتمد عنهم لأنهم ليسوا من جنسه فلا يختلط بهم ولا يسمع لفظهم لأجل أن لا يحتاج لتكذيب أكاذيبهم وان لا يقضى وقته في بعضهم وفي الحكم عليهم وهم أعداء الله . والأفضل للمتوحد أن لا يقضى وقته في الحكم على الناس الذين يعيش بينهم انما يعطى نفسه لتعليمه الإلهي وأن يلقى بعيداً عنه ذلك العبء الثقيل وأن يكمل نفسه وأن يقضى لمن حوله كالنور وفي السري يعطى نفسه لتعلم علم الخالق كما لو كان ذلك أمراً معيماً وبذلك يكمل نفسه في العلم وفي الدين الذي يرتضيه له أو يذهب الى الأماكن التي يوجد فيها العلماء فيرتبط بهم وبالمتقدمين في السن الممتازين بذكائهم وعلمهم وصدق حكمهم وبفضائلهم العقلية ، وأن يجنب الشبان القليلي الخبرة ، وان ما قوله هنا لا يناقض العلوم السياسية التي تقول بأن مجانية الناس خطأ ، ولا العلوم الطبيعية التي تقول بأن الانسان مدنى بالطبع لأن هذين المبدئين صحيحان نظرياً حال تملك الرجال كالاتهم الطبيعية ولكن قد يحدث أن يكون الخير في الابتعاد عن المجتمع فان اللحوم والنبيد أغذية نافعة للإنسان كما ان الأفيون والحنظل قاتلان ومع ذلك فإنه يحدث أن هذين الأخيرين يكونان في بعض الأحيان نافعان والغذاء العادي الطبيعي قد يحدث أن يكون قاتلاً . ولكن هذا نادر ولا يحدث إلا مصادفة وهذا أيضاً ينطبق على تدبير النفوس .

الفصل التاسع

أن غاية المتوحد النهائية هي في الأعراض المعقولة والأعمال التي تؤدي إليها كلها في حيز العقل ولا يصل المتوحد الى تلك الأعراض إلا بالتأمل والدرس وهذه الأعراض لها في ذاتها تأكيد لوجودها وهي بعبارة أخرى أفكار الأفكار وأرقاها العقل المكتسب الصادر عن العقل الفعال الذي بواسطته يتوصل الإنسان لأن يفهم ذاته كوجود عقل . ثم أسهب ابن باجه في الكلام على العقل المكتسب وطريقة الوصول الى فهم ذاته ، ثم قال « أن العقل الفعال لا ينقسم أي لا يتجزأ وحيث أن الأعراض الخاصة به جميعاً ليست فيه إلا واحدة أو على الأقل كل أرواحها هي أشياء لا تتجزأ أي أن كل

عرض خاص يوجد فيه أى فى العقل الفعّال كوحدة ، فعلم هذا العقل المنفصل كذلك واحد وأن كانت أغراضه متعددة كتعدد الأنواع . وإذا كانت الأعراض التى تصدر عنه متعددة فما ذلك إلا لأنها تظهر فى مواد مختلفة . وفى الواقع أن الأعراض الموجودة فى بعض المواد هى فى العقل الفعّال عرض واحد وليس المقصود من ذلك أنها كانت بالمعنى بعد أن كانت فى المواد كما يحدث هذا لأجل العقل فى الفعل . وليس هناك ما يعوق العقل فى الفعل عن عمل مجهود لتقريب هذه الأعراض المنفصلة منه الى أن يصل الى الإدراك المعقول أو العقل المكتسب ، لأجل هذا كان الإنسان بروحه أقرب الموجودات للعقل الفعّال وليس هناك ما يعوق العقل المكتسب عن أن يعطى ما تعطيه العقول الأخرى أى الحركة لأجل أن يتأمل فى ذاته وعند ذلك يصل الى الإدراك المعقول الحقيقى أى احساس المخلوق الذى بطبيعته هو عقل يعمل بدون أن يحتاج حالاً أو سابقاً الى شىء يخرج به من حالة القوة . هذا هو إدراك العقل المنفصل أى العقل الفعّال كما يدرك ذاته وهذا هو آخر الحركات »

ويرى القارىء مما تقدم أن ابن باجه لا يوضح بجلاء الطريق التى تتم بها تلك الحركة العظمى وكيف يتم الاتصال بين العقل الإنسانى والعقل الفعّال العام ، وقد رأينا فى رسالة الوداع أنه مضطر الى إدخال قوة فوق الطبيعة لإتمام هذا الاتصال ، ثم لندكر أن الكتاب الذى فرغنا من تلخيصه قد وجده ابن رشد غامضاً ، وقد وضعه ابن طفيل بين الكتب التى لم يتمها ابن باجه ووصفها بأنها مجزومة من أواخرها . ولكن الذى تهمنى معرفته هو أن ابن باجه أعطى للفلسفة العربية فى الأندلس حركة ضد الميول التصوفية التى ابتدعها الغزالى وقال ابن باجه : إن العلم النظرى وحده قادر على الوصول بالإنسان الى فهم ذاته وفهم العقل الفعّال كما أوضح ذلك فى رسالة الوداع وكما علمنا ابن طفيل وبذا اختط السبيل الذى سار عليه ابن رشد

✽ إيضاح لفلسفة ابن باجه ✽

١ - تحريف اسمه واضطهاده

يطلق عليه بعض الافرنج اسم (Avenpace) وبعضهم (Avimpace) وهي محرفة عن ابن باجه كما حرفوا (Avicenna) عن ابن سينا و (Averroes) عن ابن رشد وقد ولد في أواخر القرن الخامس للهجرة وتوفي في أوائل السادس (٥٣٣ هـ) ومات هذا الفيلسوف شاباً في مقبل العمر ولا نعلم الشأ الذي كان يبلغه لو مد في أجله حتى كمال مواهبه الفطرية .

على أن حياته مع قصرها كانت مثالا لحياة الفيلسوف فقد بلى بمحن كثيرة وشناعات من العوام وقصدوا هلاكه مرات ولكنه نجا من بطشهم . وكان هذا الاضطهاد بسبب فكره وما نسبوه اليه من الخروج عن حدود العقائد الدينية . فكان سابقاً لابن رشد في تلك المحن التي سببتها جهالة السوق والمتنطعين .

٢ - تلاميذه ومكان قبره

كان من جملة تلاميذ أبي بكر محمد بن يحيى بن الصائغ القاضي أبو الوليد محمد بن رشد ومن جملتهم ابو الحسن علي بن عبد العزيز بن الامام الغرناطي وكان كاتباً فاضلاً متميزاً في العلوم والآداب وقد صبح أستاذه ابن باجه مدة ودرس معه واشتغل عليه وحضر وفاة ابن باجه ودفنه في فاس سنة ٥٣٣ هـ . وعندنا شهادة القاضي أبي مروان الاشبيلي بأنه رأى قبر ابن باجه بمدينة فاس بجوار قبر أبي بكر بن العربي الفقيه . أما ابو الحسن علي تلميذ ابن باجه فقد نزع عن المغرب وتوفي بقوص بصعيد مصر في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة .

٣ - أحد تلاميذه يصف علمه وذكرائه

نقل أبو الحسن بن علي بن الامام الغرناطي تلميذ ابن باجه مجموعاً من أقوال ابن باجه وهو ما يطلق عليه الفرنسيون لفظ (Cours) وكتب في صدره مقدمة جاء فيها : « هذا مجموع ما قيد من أقوال أبي بكر بن الصائغ رحمه الله في العلوم الفلسفية . وكان في ثقابة الذهن ولطف الفوص على تلك المعاني الجليلة الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ونادرة الفلك في زمانه . فان هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من عهد

« الحكم » وهو الخليفة الذى استجلبها وهو مستجلب غرائب ما صنف بالمشرق . ونقل من كتب الأوائل وغيرها (نصر الله وجهه) ، وتردد النظر فى تلك الكتب فما انتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبيلاً . وما تقيد عن الناظرين فى تلك الكتب قبل ابن باجة الاضالات وتبديل كما تبدد عن ابن حزم الاشبلى . وكان من أجل نظار زمانه وأكثرهم لمن تقدم على اثبات شىء من خواطره وكان أحسن منه نظراً واثقاً لنفسه تمييزاً .

وانما انتهجت سبل النظر فى هذه العلوم بهذا الخبر وبما لك ابن وهيب الاشبلى فانهما كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه الا قليل نزر فى أول الصناعة الذهنية (المعقولات) ثم اضرب الرجل عن النظر ظاهراً فى هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات فى دمه لسببها ، ولقصده الغلبة فى جميع محاوراته فى فوز المعارف »

وظاهر من هذه النبذة أن المطالبات فى دم ابن وهيب الاشبلى (الاضطهادات) لم تكن بسبب اشتغاله بهذه العلوم العقلية والفلسفية فقط بل كانت بسبب خلقه فقد كان يقصد الغلبة فى جميع محاوراته فى فوز المعارف وربما كان هذا السبب الثانى ادعى الى الاضطهاد والى غيظ العوام منه وحملتهم عليه . على أن ابن وهيب لم يكن فيلسوفاً بحق وذلك لأنه لم تكن تلوح على أقواله ضياء هذه المعارف الفلسفية ولا قيد فيها باطناً شيئاً عثر عليه بعد موته . ثم أن ابن وهيب أعرض عن الفلسفة وأقبل على العلوم الشرعية فظهر فيها .

أما ابن باجة فقد نهضت به فطرته الفاتكة ولم يهجر النظر والاستنتاج والتقييد لكل ما ارتسمت حقيقته فى نفسه على أطوار أحواله وكيفما تصرف به زمنه

٤ - العلوم التى اتقنها ابن باجة

لقد أثبت ابن باجة فى الصناعة الذهنية (المعقولات) وفى أجزاء العلم الطبيعى ما يدل على حصول هاتين الصناعتين فى نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فيها فعل المستوى على أمرها والمتمكن منها غاية التمكن .

وله تمايلق فى الهندسة وعلم الهيئة تدل على براعته فى هذا الفن .

وأما العلم الالهى فلم يوجد فى تماليقه شىء مخصوص به اختصاصاً تاماً إلا نزعات تستقرأ وتستنتج من قوله فى رسالة الوداع التى سبق ذكرها واتصال الانسان بالعقل الفعال واشارات مبشرة فى أثناء أقواله لكنها فى غاية القوة والدلالة على نزوعه فى ذلك العلم

الشريف الذي هو غاية العلوم ومنتهىها وكل ما قبله من المعارف فهو من أجله وتوطئة له ومن المستحيل أن ينزع في التوطئات وتنفصل له أنواع الوجود على كمالها ويكون مقصراً في العلم الذي هو الغاية واليه كان التشوق بالطبع لكل ذي فطرة بارعة وذو موهبة إلهية ترقيه عن أهل عصره وتخرجه من الظلمات إلى النور كما كان ابن باجه رحمه الله .

٥ - المقارنة بينه وبين أكابر فلاسفة المشرق

وقد وردت في صدر المجموع الذي نقله أبو الحسن علي بن عبد العزيز أقوال لابن باجه في الغاية الإنسانية على نهاية من الإيجاز ولكنها تعرب عما سبقت الإشارة إليه من سعة إدراك ابن باجه في العلم الإلهي وفيما قبله من العلوم الموطئة ويظن المؤرخون أن ابن باجه قد دون وعلق في العلم الإلهي ما لم يعثروا عليه . ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم فإنه إذا قرنت أقاويله فيها وعورضت بأقاويل ابن سينا والفزالي وهما اللذان فتح عليهما بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لك الرجحان في أقاويل ابن باجه وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو والثلاثة أئمة دون ريب وقد أتوا بما جاء به من قبلهم من بارع الحكمة عن يقين تمتاز به أقاويلهم ويتواردون فيها مع السلف الكرم .

٦ - بيان لمؤلفات ابن باجه

- (١) شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس
- (٢) قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس
- (٣) قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس
- (٤) قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس
- (٥) كلام على بعض كتاب النبات لأرسطوطاليس
- (٦) قول ذكر فيه التشوق الطبيعي وماهيته .
- (٧) رسالة الوداع وقول يتلوها .
- (٨) كتاب اتصال العقل بالإنسان
- (٩) كتاب تدبير المتوحد
- (١٠) تعاليق على كتاب أبي نصر في الصناعة الذهنية

- (١١) فصول قليلة (fragments) في السياسة المدنية وكيفية المدن وحال المتوحد فيها
- (١٢) كلام في الامور التي بها يمكن الوقوف على العقل الفعال .
- (١٣) نبذ يسيرة على الهندسة والهيئة
- (١٤) رسالة كتب بها الى صديقه ابى جعفر يوسف بن احمد بن حسداى (بعد قدومه الى مصر)
- (١٥) تعاليق حكيمية وجدت متفرقة
- (١٦) جوابه لما سئل عن هندسة ابن سيد المهندس وطرقه
- (١٧) كلام على شئ من كتاب الادوية المفردة للجاليوس
- (١٨) كتاب التجربتين على ادوية ابن وافد وقد اشترك معه في تأليفه ابوالحسن سفيان
- (١٩) كتاب اختصار الحاوى للرازى .
- (٢٠) كلام في الغاية الانسانية
- (٢١) كلام في الامور التي بها يمكن الوقوف على العقل الفعال
- (٢٢) كلام في الاسم والمسمى
- (٢٣) كلام في البرهان
- (٢٤) كلام في الاسطقات
- (٢٥) كلام في الفحص عن النفس النزوعية وكيف هي ولم تنزع وبماذا تنزع .
- (٢٦) كلام في المزاج بما هو طبي
- ولم يصلنا من هذه الكتب جميعها سوى كتابين :
- (١) مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعات ومنها نسخة في برلين وأخرى في اكسفورد
- (٢) رسالة الوداع مفسرة بالعبرانية

